رواية عن «فتوات» هاونسلو في غرب لندن

«لندنستان»: احتفاء باللغة الهجين على حساب الشخصيات

ابراهيم درويش*

■ «لندنستان» مصطلح دخل اللغة الاعلامية البريطانية لوصف الاسلاميين العرب الذين لجأوا الى بريطانيا، خاصة في الثمانينات من القرن الماضي. ولا غرو ان كاتبة صحافية اصدرت قبل يومين كتابا يحمل عنوان «لندنستان: كيف تقوم بريطانيا بصناعة دولة ارهابية من داخلها»، حيث تتخذ الكاتبة ميلاني فيليبس من حادثة رواية سلمان رشدي «الآيات الشيطانية» للحديث عن ما تسميه الحديث عن جماعات ترغب بنشر خطاب ارهابي وعنيف. الكاتبة معروفة بمواقفها اليمينية المتعصبة وفحص روايتها ان احتاجت لفحص يجب ان يتم عبر هذا المجهر، ومجهر الحاجة الماسة الى كتابات من هذا النوع تخدم بالضرورة اجندة الصحافة اليمينية داخل السياق البريطاني. وما ارغب تقديمه في هذا السياق ليس كتاب فيليبس بل رواية البريطاني ـ الهندي غوتام مالكاني «لندستاني» عن ثقافة الجيل الجديد من ابناء المهاجرين الهنود الذي يعودون لهويتهم «الاثنية» لتأكيد رجولتهم وفتوتهم. وهذا الجيل ليس معنيا بالعلاقات العرقية او بالاطر الثقافية التي تحكم حتى الحدود والحواجز المقامة بين ثقافة الغالبية البيضاء والاقليات الاخرى، بقدر ما يشعر ان الخروج من ازمة التهميش والتجاهل تكمن بالتمسك بالهوية الاثنية في الشارع لتأكيد الذات والنجاة في واقع يبدو معادياً. وقد حظيت الرواية التي صدرت قبل شهرين بتعليقات متفاوتة، بين من مدح قدرة الكاتب على استعادة لغة الشارع والرطانة التي يتحدث بها صبيان الاحياء، وبين من تساءل عن قيمة الرواية التي قال انها تفتقد العمق، وتعيش شخصياتها حالة من السكون ترفض التطور، او حتى التقدم نحو اعادة تشكيل الذات، فليس هنا وفي سرد الكاتب مجال للحديث عن تحول في مفاهيم الشبان، وعلاقاتهم بالمجتمع الواسع الذي يعيشون فيه.

وكنا قد اشرنا في مقاربة سابقة عن اشكالية الاصالة في الكتابات «الاثنية». فغوتام مالكاني وان ولد في حي هاونسلو غرب لندن الذي تعيش فيه جالية هندية كبيرة الا ان علاقته بثقافة ابناء الشوارع وشبان الاحياء فقيرة، ويعترف الكاتب ذاته انه لم يكن في يوم من الايام ولدا «وقحا/ شقيا» مثل ابطال روايته. كما انه خريج جامعة كامبريدج وعمل في صحيفة المال والاعمال البريطانية المعروفة «الفايننشال تايمز».

ويقول انه قضى ثلاثة اعوام في كتابة هذا العمل، حيث قام بمقابلة العديد من شبان الاحياء، الذين يحتفون اكثر باخر صرعات الموضة في مجال التكنولوجيا الرقمية، ويمارسون سلطتهم على صبيان الحي الذين يرون فيهم نزوعا نحو تقليد ثقافة جماعة الغالبية او يطلق عليهم افراد عصابة «لندستاني» صبيان «جوز الهند» في اشارة الى لون قشرة الثمرة البنية وقلبها الابيض.

فابناء الجاليات من الهنود الملونين ينزعون في عاداتهم وممارساتهم الى تقليد البيض، مما يعني التخلي عن الثقافة الاصيلة. وكما يظهر من تحليل مناحي رواية مالكاني، فهؤلاء الابناء ليسوا معنيين عندما يقلدون مناحي ثقافية او يبحثون عن رؤية اندماجية بقدر ما يندفعون نحو الثقافة الاستهلاكية التي تحيط بهم من كل جانب وتدفعهم للانجرار كل يوم وراءها، غير ملتفتين لدروسهم. ومن هنا فابطال العمل كلهم من الفاشلين في الدراسة الذين يبحثون عن طرق واساليب لترويع الشبان، خاصة الذين يتجرأون على سب الاسيويين بوصفهم «باكي»، وهي الكلمة التي تحمل مظاهر ودلالات سلبية عن الهندي او «الاسيوي» القادم من شبه القارة الهندية. والرواية تدور في هذا الاطار، وتحمل هموم هذا الجيل الباحث عن تأكيد الذات الا انها لا تمس العمق، ولا تغوص في دواخل الشخصيات. ومالكاني يرى ان الاشكالية الرئيسية التي يعاني منها ابطال عمله ليس شعورهم بالتهميش لاصولهم الاثنية، ولكن مشكلتهم تكمن في غياب الرجولة، اذا اخذنا بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه المرأة في البيت، ومن هنا تبدو الهوية الاثنية معادلا للرجولة، او الفتوة. وهذا الاطار مفهوم اذا اخذنا بعين الاعتبار حال الفتيان والاحداث الذين يعيشون تقلبات كثيرة تنشأ من خلال الثقافة الشعبية. فمن خلال بحث الابطال عن فتوتهم ورجولتهم يقومون باختراع ثقافة هامشية، تأخذ اولا من افلام بوليوود، وتعيد انتاج اغاني العنف، خاصة اغاني الراب التي اشتهرت بفعل الثقافة الافرو كاريبية، وقبلها بين الافرو امريكيين، وتأخذ بشكل كبير من ثقافة العصر الرقمي، فابطال العمل وان كانوا في المظهر من طائفة السيخ، ويحملون في داخلهم الكثير من تناقضات الجالية، الباحثة عن مكان في الشمس في مجتمع يفترض انه متعدد الثقافات والاعراق الا انهم في النهاية ابناء «اي بود»، و عصر «الديجيتال»، ونتاج الانترنت وثقافة عصر المعلومات.

وما يثير في هذه الرواية هي انها تتساءل في بعد باطني منها عن السبب الذي يدعو او يؤدي لانتشار ثقافة العصابات بين الشبان «الاسيويين» المعروفة عائلاتهم بانجازاتها وتماسكها وحرصها على احترام القانون والنظام والمشاركة في العمل العام، فهذا الجيل هو نتاج ابناء الاقليات الذين كافحوا من خلال «دكاكين الزاوية» لتعليم ابنائهم الذين رفضوا بعد ذلك سلك المسار الذي ساره الاباء او الاجداد قبلهم، والسؤال في هذا السياق مشروع، اذ اننا اليوم امام حالة من انتشار «عصابات» الشبان ليس بين فئة محددة من المجتمع بل داخل مجتمعات الاسيويين بل بين الشبان المسلمين، خاصة الصوماليين. وما انتشار ثقافة «السكاكين» في المدارس الا صورة هذه المشكلة.

اعترف في البداية انني وجدت صعوبة في قراءة هذا العمل، والصعوبة تكمن في الخيار اللغوي الذي اختاره، فقد قرر، مالكاني تسجيل الحوار بلغة الشارع الذي جاء هجينا بين البنجابية والانكليزية الرديئة، والكاتب هنا يكتب لغة اصبحت معروفة باختصاراتها الشديدة، خاصة تلك التي تظهرفي الرسائل الهاتفية، فالكلمة احيانا تختصر الى حرف واحد.. وامام هذا الاختيار اللغوي يجد القارىء نفسه امام حالتين، الاولى التخلي عن مشروع القراءة، او مواصلتها على امل العثور على شيء جديد. واخترت المواصلة، واعترف انني تجاوزت الكثير من الصفحات التي احتفت بالحوارات «الشوارعية» ولم تتحدث عن تطور في الاحداث. فالحديث عن اتفاق بين المجموعة/ العصابة وبين سانجاي، الرجل الناجح الذي عمل في بنك وسط البلد/ لندن، حول تنظيم عمليات سرقة الجماعة رغم انها خارجة عن القانون اخذ تقريبا فصلين من العمل.

على العموم، الرواية تدور كما اسلفنا في غرب لندن، في حي هاونسلو، وتتحدث عن عصابة من اربعة، هاردجيت، الشاب العنيف العدواني، الذي يرسم وشما على يديه «خاندا» المأخوذ من التعاليم السيخية، حيث تبدأ الرواية بحادث مواجهته لشاب ابيض «غورا» تجرأ على التهكم وسب الاسيويين «الباكي»، وعندما يدمي فمه، يطلب منه افراد العصابة عدم تكرار فعلته ويشترطون ان يحلف بحياة امه، عندها يرد: ولكنك تعرف ان امي ماتت، وحضرت جنازتها. مع هاردجيت، رافي واميت اللذين يتبعان رئيس العصابة كظله وشخصيتهما باهتة، اما الرابع فهو السارد جاس الذي يحلم بان يكون شابا «وقحا» او شقيا.

جاس، الراوي يتخلي عن صداقاته وتعليمه وعائلته من اجل تحقيق حلم الرجولة والفتوة. المشكلة ان جاس، الشاب الحالم بدخول عالم الرجال والفتوات الذي يمثله هاردجيت، بهويته الجديدة ظل شخصية ثابتة لم تشر لصراع او نوع من التوتر الذي ينتج عادة اثناء عمليات تحول من هذا النوع، اي بين شخصيته القديمة والجديدة، باستثناء بعض الاشارات البسيطة عن الرهاب والخوف من الاخر وكراهية المرأة. لم يتغير مسار الرواية حتى بعد ان يقدم لنا مالكاني سانجيف الذي تخرج من مدرسة جاس في هاونسلو، وقدرة سانجيف تتبدى في مهاراته التجارية وهنا يقدم لنا مالكاني اطارا عن التداخل بين فكرة الفتوة والاستهلاك. شخصيات الرواية تبتعد او تمارس لعبة الاحتيال للدخول في عمق الاشياء فهناك تسطيح في التشخيص اثر على عمق السرد، ومالكاني الذي يبخل في المعلومات يعمل على تحويل السرد وتوتره في نهاية عمله ولكن هذه الاستراتيجية جاءت متأخرة.

جاس، شاب غريب الاطوار، فهو وان طمح لان يدخل عالم الشقاوة والعنف، الا انه يحاول ان يقترب من فتاة مسلمة ولكنه غير قادر على الاقتراب منها، وهنا علاقة العصابة مع سانجيف، وان لم تكن تمثل شيئا كبيرا لافراد العصابة الثلاثة، الا انها بالنسبة لجاس، تعتبر امتحانا والتزاما، فسانجيف يعرف حالة جاس، ولهذا يقترح عليه تعليمه اساليب الغواية والاغواء.

اهمية الروايات الاثنية التي كثرت في الاونة الاخيرة تكمن في انها تحمل في طياتها الكثير من سير وملامح كتابها، ولهذا يمكن ان نفهم ان جاس هو معادل للكاتب مالكاني، والرواية على خيارها اللغوي واستراتيجيات السرد فيها، تحمل الكثير من ملامح الحياة في الاحياء، عن احتفالات «ديوالي» للهنود، الذي اصبح في الاعوام الاخيرة يترافق احيانا مع اعياد المسلمين، بسبب الاعتماد على الحساب القمري، على خلاف اعياد المسيحيين الثابتة، وبسبب ثقافة الاستهلاك صار عيد الميلاد يقترب اكثر فاكثر، اي يبدأ مبكرا، فالناس يقبلون على الشراء وتخزين الهدايا في الخريف اي قبل موعد العيد في الشتاء.

اعود مرة اخرى الى الخيار اللغوي، والذي اثر على مسار احداث لها علاقة بالواقع الاثني، مثل الزواج المرتب، التوتر العرقي بين الاقليات، الاشكاليات الدينية. كما ان الخيار اثر على شخصيات الرواية التي بدت مثل تلك الخارجة من افلام الكرتون. «لندنستاني» هي بالضرورة عن الثقافة الاستهلاكية وعن ما يشكل رؤية الجيل الجديد وعلى الرغم من المواقف المتحيزة والعبارات الصارخة والجارحة، فقد نجح مالكاني بتوثيق الملامح التي تشكل حياة هؤلاء الابطال، فثقافتهم تعتمد على ما يشاهدونه وما يعايشونه من احداث، افلام ومسلسلات محلية «هولبي ستي»، «كورنيشين ستريت»، «ايست اندرز».. او افلام هوليوود «الحاسة السادسة»، و «شندلر ليست» التي لا اعرف علاقتها بالاقتصاد، ولكن مدرس الاقتصاد يستخدمه لتقديم صورة عن الاقتصاد في عهد النازيين.. اضافة لابطال بوليوود، اميت باتشان. مالكاني قيل انه حصل على مبلغ كبير من دار النشر لهذا العمل الذي يعتبر اول عمل روائي له مقداره 350 الف جنيه. ويقول انه طمح لكتابة رواية عن لغة جيل لا يقرأ الكتب.. مالكاني، يقول ايضا انه اراد ان يقوم بنفس ما قام به الكاتب الامريكي اس اي هينتون مؤلف كتاب «الغريب». وتقديم لغة الشارع كانت واضحة في اعمال الايرلندي رودي دويل «بادي كلارك ها ها». طبعا المبلغ الكبير له علاقة بهوس السوق في تقديم اصوات اثنية جديدة، فقبل مالكاني، كانت مونيكا علي «بريكلين» وزادي سميث «اسنان بيضاء» وهي روايات عن الاحياء والاقليات التي تعيش فيها، في قلب المدينة الكبيرة لندن وعلى هامشها في نفس الوقت.

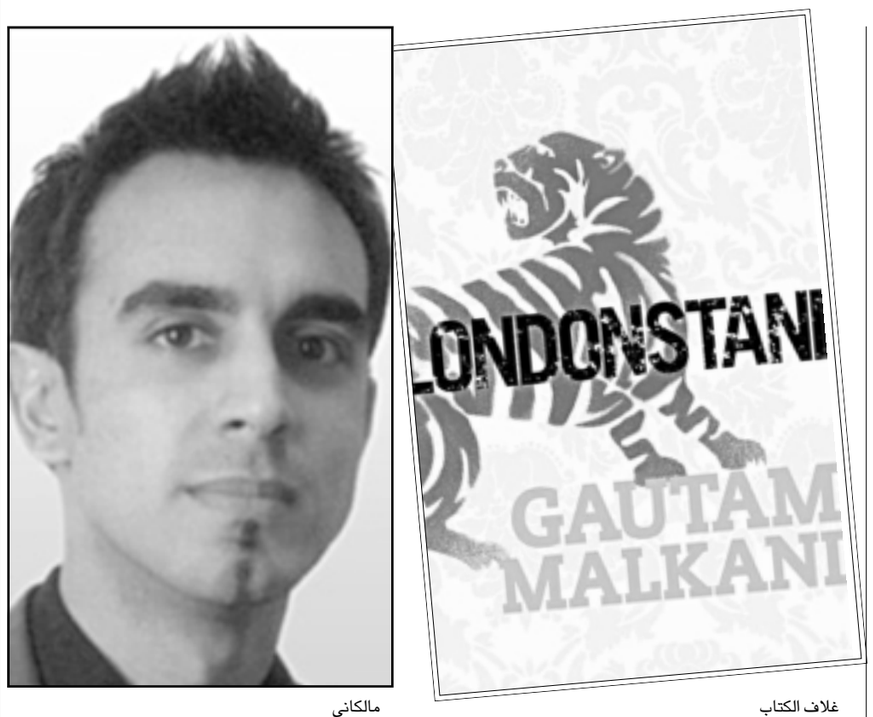

غلاف الكتاب

مالكاني

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

Londonstani
Gautam Malkani
Fourth Estate
Lodon/2006

فضاءات ثقافية

شواعر الجاهلية

دمشق ـ «القدس العربي»:

درست الكاتبة والصحفية رغداء مارديني موضوعاً غير مطروق سابقاً في العربية، يتعلق بالنساء الشاعرات في الجاهلية، فجمعت في كتابها «شواعر الجاهلية» أربعا وستين شاعرة، وهن بعض ممن نطقن الشعر العربي في تلك الحقبة.

قسمت رغداء كتابها البالغ 398 صفحة من القطع الكبير والصادر عن دار الفكر بدمشق إلى ثلاثة أقسام، الأول تراجم الشاعرات والثاني الخصائص الفنية، والثالث الديوان.

في هذا البحث تواجهنا قلة المصادر، وغرابة الشعر أحياناً، فليس مألوفاً في مجتمع بدوي محافظ أن تفخر امرأة «هند بنت الحسن» مثلاً بمواقعتها لعبد في القبيلة، وقد حملت منه سفاحاً بعد عشق، أو الشاعرة «دخنتوس بنت لقيط الدارمية» التي تزوجت من أبيها بعد اعتناقهما المجوسية. كما ضم الكتاب الكثير من الشعر الفاحش إضافة للغزل العذري عند بعضهن.

التفاصيل التي أوردتها الكاتبة في كتابها عن الشواعر وأسرهن، أغنت القارىء بمعلومات كانت مقتصرة على المشهورات منهن أمثال الخنساء وزرقاء اليمامة، ولعل كثرة المراجع التي اتكأت عليها رغداء جعلتها تلم بكل صغيرة وكبيرة بما يخص حياة الشاعرات اللواتي استطاعت أن تحصل على مراجع عن سيرهن الذاتية وقصائدهن، ولم تكتف الكاتبة بسيرة الشواعر بل كثيراً ما كنا نقرأ في كتابها عن السيرة الذاتية لأزواجهن أو أخواتهن، أو آبائهن، فمثلاً ارتبط اسم الشاعرة «أميمة» باسم ابنها «تأبط شراً» لما له من شهرة في التاريخ العربي الجاهلي دون ذكر اسم والدها، وأيضاً «الخنساء أخت زهير» وقد نسبت لأخيها زهير ابن أبي سلمى لشهرته الواسعة الانتشار بين العرب ولم تنسب لأبيها أبي سلمى ربيعة بن رياح بن مرّة بن الحارث.

وفي المقابل كان هناك اقتضاب شديد في سرد حيوات شاعرات عجزت الكاتبة عن الحصول على المراجع التي تحكي تفاصيل عن حياتهن وأشعارهن، وذلك لصعوبة الحصول على المرجع، مع العلم أنها بذلت جهداً استثنائيا في سبيل تحقيق هذا الكتاب الذي يعد بحق مرجعاً لكل مختص ودارس.

أبشرك بي

■ تعتمد الشاعرة «انتصار سليمان» في ديوانها الرابع «أبشرك بي» على «العقوبة، وهذا المزاج الأخضر، ولا نعدم شوكة هنا، أو حطبة هناك، كل ذلك يتآلف ليكوّن مشهداً شعرياً ذا نكهة خاصة».

كما يقول صقر عليشي في تعليقه على الديوان الذي يفتتح منذ العنوان باب الغواية لدخول القارئ إلى التجربة/ العشق، وكأنه النداء الأزلي للمرأة:

«سأرمي من شباك قلبي وردة
حتى تتعثر برائحتي / فأنا منسوبة إليك».

حاولت «انتصار سليمان» في بداية كتابها الشعري الرابع أن تنوّع على إيقاعات النصوص القصيرة المعبأة بشحنة من الدلالات والإيحاءات الرمزية والشعورية:

«أظن لا يكفي متران كي أتمدد
أيها الحفار
أترك لي فسحة
لوأد ملامحه قربي»

لكنها فيما بعد تبني قصائدها على مقاطع تغزل لنفسها خيطاً درامياً يجمع شتاتها في وحدة القصيدة النثرية التي تتيح للشاعرة أن تخوض في موضوعات شتى تبث فيها حيوية شعرية لم نألفها سابقاً، كما تحافظ على غنائية وجدانية خارج حدود الإيقاع والوزن التقليدي. غنائية تذكرنا برومانسية حزينة لامرأة تبوح بخيبتها وسرّ التوق الكامن في عينيها حتى لحظات الموت:

لن أسفح ماء كبريائي/ على عتبات صدّك
أعرف تماماً ماذا عليّ فعله/ قبل أن تركلني كلماتك إلى متاهة الحياة
سأغيب عمراً من الورد/ ولن أنمو على السياج.

«أبشرك بي» أنثى تكتب ذاتها أو تسفح هواجسها على بياض الورق، تلقينا في الحالة الشعرية التي تعرش في وجدان كل إنسان.

المثقفون الفلسطينيون يدينون الاقتتال الداخلي

رام الله ـ «القدس العربي»:

عقد اللقاء الثاني للمثقفين الفلسطينيين في قاعة الشاعر الراحل حسين البرغوثي في (بيت الشعر)، وقد حضر اللقاء عدد من المثقفين والأكاديميين والفنانين التشكيليين ومسؤولي المؤسسات والمراكز الثقافية.. وطلبة الجامعات.

وقد افتتح اللقاء بالوقوف دقيقة صمت حداداً على شهداء عائلة أبو غالية وشهداء الاحتراب الداخلي وشهداء فلسطين والعراق والأمة العربية عموماً..

بعد ذلك قرأ الشاعر مراد السوداني مسوّدة أولية لبيان المثقفين الفلسطينيين كأرضية للنقاش ومقاربة الوضع الداخلي ودور المثقف الفلسطيني والمؤسسة الثقافية مما يحدث من تطورات وأحداث. وقد اتفق المجتمعون على ضرورة قسم على شكل ملصقات توضع في الأماكن العامة لتحريم الاقتتال الداخلي ونبذه وضرورة إصدار بيان يوجه للمثقفين في فلسطين والمثقفين العرب والمثقفين في العالم. وقد تداخل في الاجتماع عدد من المهتمين في حوارية اشتملت على كافة الاقتراحات التي تقدم بها د. عادل سمارة والشاعر د. المتوكل طه والشاعر د. عبد الرحيم الشيخ، والناقد د. عبد الكريم أبو خشان والروائي وليد أبو بكر ود. أحمد مجدلاني والمبدع وليد الهودلي ود. صبحي عبيد والشاعر محمد عياد والشاعر ربحي محمود ورياض سيف وأمين عنابي وأحمد قبعة والفنان مازن سعادة والفنان جواد إبراهيم والفنان كريم دباح والفنان بشار الحروب.

بالإضافة لعدد من الحضور من مختلف الاهتمامات الثقافية الذين أغنوا الحوار بمداخلتهم واقتراحاتهم.

وقد ناقش المجتمعون عدداً من القضايا منها حالة البيات التي يحياها المشهد الثقافي الفلسطيني (بمؤسستيه الرسمية وغير الرسمية)، حيث دعا المجتمعون إلى إعلان حالة طوارئ ثقافية فلسطينية، كما اتفق المجتمعون على ضرورة اللقاء والتواصل مساء كل ثلاثاء لمناقشة ما يستجد وما هو طارئ.

كما تناول الحضور أولويات الثقافة الفلسطينية اليوم: مبادرات انقاذ وطنية، مقاومة التطبيع، إعادة إحياء حركة التضامن الدولية مع الشعب الفلسطيني. كل ذلك وغيره كان على جدول أعمال اللقاء.

وتقدم المتحاورون بعدد من الاقتراحات مثل: فعاليات جماعية ثقافية فنية على شكل تجمعات وتظاهرات والدعوة إلى أسبوع التلاحم والوحدة ليشمل فعاليات ثقافية، بالإضافة لضرورة اطلاق حملة اعلامية تشارك فيها كافة الأقلام وفي كل الصفحات المكتوبة والإلكترونية وأن يتم توزيع البيان الذي يصدر عن الاجتماع على الاتحادات العربية والدولية والفروع. بالإضافة لبرامج مقترحة على التلفزيون الفلسطيني وما هو محلي من مرئي ومسموع ليصل صوت المثقف إلى كل مكان وقد حرص المثقفون في اجتماعهم على الابتعاد عن «السياسة» والذهاب نحو المتفق عليه للتأكيد على الوحدة الداخلية باعتبارها الرافعة الحقيقية لحراسة الحلم..

وقد تم التطرق إلى موضوعة التطبيع وضرورة عقد يوم دراسي لمناقشة هذا المفهوم ودعوة كافة المهتمين والمنشغلين بهذه الموضوعة لتقديم مقاربتهم حول هذا المفهوم لصياغة موقف وطني ثقافي لتصلّب الجبهة الثقافية وتمتينها.

وقد دعا المجتمعون إلى ضرورة مشاركة كافة المثقفين والمبدعين والفنانين والأكاديميين والاعلاميين لتقديم اقتراحهم الثقافي في سياق خطة انقاذ ثقافي وإعلان حالة الطوارئ الثقافية.

قص

الضلال بالإشارات

يحيى القيسي*

نَهْجْ عبدالله قَشْ

لا تقل يا رَجل إنك لا تعرفه..!

أخبرني الطيّب بن محمود مندهشا ذات مساء، كان رفيقي في الحانات أحياناً، وزميلي غالباً في مقهى الجامعة، وقاعات المحاضرات، ثم أعاد مشدداً:

ـ نهْج سيدي عبدالله.. كيفاش.. مَنيش مْصَدْقك، معظم الطلبة المحرومين أدّوا الواجب هناك..!

كنت قد سمعت بهذا الاسم من قبل، وبدا لي غائماً، إذ كنت أربط كلمة «سيدي» بمقام وليٍّ أو فارس نبيل، ولستُ أذكر كيف انبثق ذهن الطيّب عن هذا السّؤال، كنا نجلس في بار مخصص للكتاب أو أصدقائهم، وكان الطيّب واحداً منهم، أعني من أصدقائهم، إذ كان يتلمسُ طريقه في ذلك العالم المتشابك للكتابة على صفحات جريدة «الصباح»، وعرفتُ أيضاً أنّه يقرض الشعر، وكنا قد بلغنا معاً درجةً عاليةً من الدوخان، بفعل النبيذ المرافق لسيل من النميمة غير المنعشة والثرثرة، والتقلّب في الموضوعات حتى وصلنا إلى النساء، ولأكن دقيقاً وأعترف بأنّنا لم نغادرهذا الموضوع الأثير أصلاً إلا لماما، بدا لي لازمةً لكلّ مجالس الرجال، وأحسست بتشويق الطيّب لي للتعرف على العوالم السرية للذائذ المحرمة في «المدينة العتيقة» أمراً ملحاً، وراح يتبرّع بالشرح المُسْهب عن تاريخ الجنس عند العرب، وكيف أنّ دور الدعارة قد انقرضت في معظم البلاد العربية بعد منتصف القرن العشرين، ولكنّها ما تزال قائمةً ومرخصةً هنا، وهذا أمرٌ «يعكس مقدار الانفتاح عندنا والعقل المستنير... ثم إنّ كتاب الشيخ النفزاوي ـ الروض العاطر ـ يباع هنا على الأرصفة، وقد سمعت بأنه ممنوع في كل البلاد العربية المتخلّفة»، ولم أميّز حينئذ إن كان الطيّب يتهكّم أم يدافع بحماسه، فقد كان مرّة يرفع صوته، ومرة يهمس لي همساً، ثم فجأة طرأ على باله أن يقرأ لي قصيدة من ديوانه المحلوم به «مدارات العاشق المطعون»، وكانت كافية لأن تدير لي رأسي تماما، ولكنّا لم نفترق تلك الليلة حتى اتفقنا على موعدٍ لأن يصطحبني إلى هناك.

لوْ أتزوّج شاميّة

خيرٌ لي، وأنا أتلمّس تطبيق مثلكم «إللي بتزوج شامية بعيش عيشة هنية»، وأضاف الشاعرُ المطعون حانقاً:

تعرف أنّ النساء لدينا أخذن حقوقهن الكاملة، وربما حقوقنا أيضا، «وما عادوش يحشمو وبالحق ما نحبّش نتزوج راجل»، والقوانين تمنع علينا الزواج بأكثر من واحدة، بعكس الشريعة، ثم أنت تدري بأنّني لستُ متديناً، ولا أهتم إلا بتطبيق هذه النقطة منه على الأقل، وفاءً لأجدادنا «ولا كيفاش» أنا حر يا أخي، ثم إن الشاميات كما سمعت طريات، فاتنات يحترمن الزوج، ويخدمنه دون تذمر، «تنجّم» تقول «عناية كاملة»، وزادت «طبّاخات ماهرات، أحيانا أذهب لبيت أصدقائي الفلسطينيين أو السوريين الذين يقيمون بيننا، يا أخي» القرع بالأرز واللحمة المفرومة، شيء لذيذ، تسمّونه الكوسا محشي، وورق العنب، والملفوف، والبابا غنوج، والحمص بالطحينة، والمقلوبة... «شي بنين ياسر»، أفضل لبنانية طبعا، أتعرف لماذا؟

تصيبني الرعشة اللذيذة للهجتهن التي تفوح منها الرغبات «تسلملي حبيب ألبي.. لك وينك يا حلو يا مهضوم»...

يا لحفيدات عليسة المغناجات..!

قادني الطيبُّ إليه

أدخلني أولاً في «نهج زرْقون» الذي يبدو مثل مدخل سري للمدينة العتيقة، وقد ازدحم بالباعة الذين يفرشون بضاعتهم على دكّات خشبية، وينادون على المشترين، وبدت الملابسُ والأدوات الكهربائية والعطور وأدوات الزينة، المستوردة أو المهربة، محشورةً في الحوانيت من كل نوع وشكل، وقد اختلطت بالأصوات المنطلقة من الكاسيتات للشيخ العفريت، ولنبيهة كراولي ولطفي بوشناق، ومغنيّي الراب الجزائريين، وإغواءات الباعة الملحاحة للمشترين أو المتفرجين.

فجأةً ينقطع هذا السيل الجارف من الباعة وأصواتهم وبضاعتهم، و ينفتح زقاق شبه مظلم تحت أقواس بُنيت فوقها البيوت المتلاصقة، وقد تفرّع بي الطّيّب إلى أزقة مظلمة، لا تكاد تتسع لأكثر من عابرين معا، شُعرت بالرطوبة تنزّ من الجدران التي تكاد تهصرُ الأجساد العابرة بينها، وأوصاني بأن أكون عاديا وأكتم اندهاشي حتى لا ينتبه لارتباكي بعض حثالة الرجال المتجولين هناك من «الباندية والمهمشين ومقتنصي النشل»، ويعرفون أنني غريب عن البلاد، وربما أكون صيداً سهلا لعبثهم رغم أن المكان مراقب جيدا من رجال الأمن السريين، كان سيلٌ من المارّة يجيئون ويذهبون بتقطعٍ واضح، حتى وصلنا «نهج سيدي عبدالله قشْ»، وقد انفرج إلى صفين من البيوت الطينية الواطئة المداخل، امتلأت أبوابها بالمتفرجين والباحثين عن المتع العابرة، بدا لي المكان قديماً ومستهلكا في بنائه، وفيما يحتويه من نساء مجرّبات، قد أكلَ الزمن وتقلب الرجال عليهن ما تبقى لهن من جمال أو قدرة على الإثارة، شعرت بالغثيان، ولا سيما أن الروائح العطنة كانت تملأ الجو، خلطةٌ من رائحة السجائر، وأنفاس الرجال المتلاحقة، والعرق الراشح منهم، والعطورَ الرخيصة المرشوشة على أجساد النسوة، والدهونات التي تحاول أن تصلح ما أفسده الدهر..!

بدا لي همس الطيّب الماكر بأن أختار واحدة من صاحبات الغرف التي تنفتح على غرف أخرى قد غطيت بستائر حمراء، ويقف على بابها القواد الذي يأخذ الفلوس من الراغبين أمراً يزيد من رغبتي بالقيء، كانت بعض الغرف مطلوبةً أكثر من غيرها بمن فيها من غانيات بدونْ أصغر قليلاً من غيرهن، ورأيت صفا من الرّجال المتحفزين للدخول بفحولة ضاغطة ينتظرون دورهم، قلت له إنني رغبت فقط في التعرّف على هذا المكان وربما لمرةٍ واحدةٍ فقط، وإنني أشعر حقاً بالقرف، وأشفقُ على أولئك النساء اللواتي قادتهن الظروف البائسة إلي مثل هذه المهنة التي تسحق إنسانيتهن، وأردفتُ «نساءٌ معطوبات الأرواح والأجساد»، لم يكن الوضع مناسباً لأي نقاش، واكتفى الطيب بأن هز رأسه ساخرا مشيرا إلي لأحتفظ بتنظيراتي الطوباوية، وقال «هذا وكر الرغبات المشروخة للمحرومين، وهؤلاء نسوة يمارسن أقدم مهنة في التاريخ..» وأضاف مفصلا «ولقد زاره كبار الأدباء العرب والصحفيين ممن يأتون إلى تونس، بعضهم جئت به أنا وآخرون أتوا مع غيري فلا تقلق»، وشعرت وأنا أتابع التنقل من باب إلى آخر ورؤية ما فيه من أجساد مبذولة للدافعين خمسة دنانير أو أكثر بمن يربت على كتفي، وانتبهت فإذا خلفي أربعةٌ من الطلبة الذين أعرفهم، كانوا من أبناء بلدي، وما يجاورها، وكنت قد تعرفت عليهم من قبل، وتزاورنا مراراً، ودهشت لأنّهم من طلبة الزيتونة، وقد صار لهم سنتان أو يزيد في الجامعة. ألجمت المفاجأة ألسنتنا كلنا، فقد لاحَ لي أنّهم استهجنوا وجودي هنا، مثلما فعلت أنا، كنتُ أكبرهم سناً، وأسبقهم إلى الدراسات العليا، وشعرتُ بأنّهم أيضاً في ورطة. ولكنّي تجاوزت وإيّاهم الموقف المُحرج بكثير من التلعثم والتبريرات المفتعلة، وساهم الطيّبُ الذي عرّفته عليهم في السؤال عن الطالب الكفيف الذي يقودونه معهم وإثارة جوّ من الودّ والتخلص من الحرج «إش بيك سي نورمال X.. مش قلتلك من الأول..»

وعرفت منهم أنهم يأتون مرّة كل شهر على الأقل هنا، وأنهم أحيانا يختارون امرأة ليتناوبوا عليها، وقد رغب «عبد الرحمن» أن يكون معهم، أو ربما أغروه بالمجيء، قال لي أحدهم همساً بأنّهم أشفقوا عليه، من كثرة ما كان يحدّثهم عن النساء، كان المشهدُ سرياليا، إذ يتواطأ ثلاثة شباب ممن قادهم حظهم أو ترتيب بعثاتهم الدراسية العشوائي إلى جامعة الزيتونة للقيام بدور الوسيط بين إحدى النساء المنتهكات تماما وعبد الذي لا يرى بغير حواسه والذي بدا منكسر الخاطر، قُدّر لي أن أشهد فيما بعد، تلك الحوارات المقتضبة بين من يقود ه، وتلك المومس البائسة الملامح، قال لها بأنّ صديقه سيدخل أولاً إليها وأنه سيوصله إلى السرير ويتركه معها، قالت إنها لا تفعلها مع أعمى، أشار إليها بأنه سيدفع لها المبلغ مضاعفا، وأنّ الأمر لا يتعلق بعينيه، المهم أنه «راجل»، وحرك جذعه بطريقة مبتذلة.

ردت بعنف «إش بيك يا طحّان ما تفهمش.. قلْتلك ما نرقدْش معاه..»..!

وأشارت إليهم أن يخرجوا، قالوا إن هذه العاهرة غريبة الأطوار، وذهبوا ليجرّبوا حظهم مع غيرها، بدا على «عبد الرحمن» الغضب المخلوط بالإحراج، لكن رفاقه قادوه إلى مهجع آخر سرعان ما غطس فيه بعض الوقت، فيما تناوب الآخرون على غرف أخرى ضمّت نساء لم تستطع الأصباغ الرخيصة، والابتسامات المتصنعة أن تخفي خلفها أخاديد غائرة في الأجساد والنفوس، وقلت للطيّب ونحن نغادر المكان: يبدو أن «الطّحَان» كلمة كبيرةٌ عندكم، فأومأ بالإيجاب شارحاً لي معناها: «قوّاد أو من يرضى الفاحشة بأهله».

قلت: تصوّر أنه لا دلالات سيئة لهذه الكلمة عندنا، بل تعني من يطحن القمح..!

قال ضاحكاً في واحدة من تجلياته:

«أعرف ولكنّنا نتجنب ذكر هذه الكلمة، ونستخدم بدائل لها مثل «الرحّاي»، أو رحي القمح بدل كلمة «الطحن» أماً «الطحين» فنسميه «الفلينة»، بالمناسبة سمعت أن كلمة «عكروت» لديها دلالات سيئة عندكم أيضا، تصوّر أن لدينا قرية تسمى «العكاريت»... !

الكلماتُ بيضاءُ يا صديقي ومحايدة و لا ذنب لها، ونحن نلوّثها بنوايانا الفاسدة» .

* كاتب وصحافي من الاردن
وهذا مقطع من رواية تصدر قريبا في بيروت وعمان